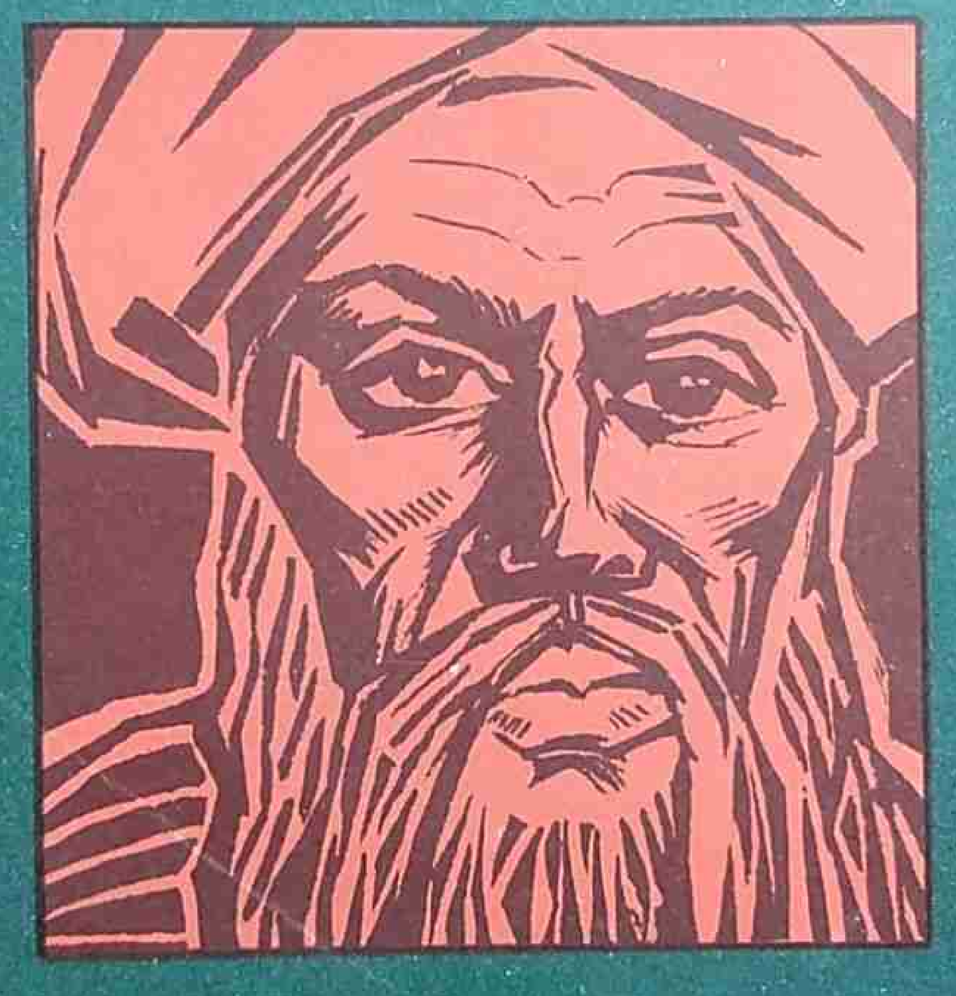
لقمان الحكيم



بقلم عبد الله كنون الحسني



دار المعارف بمصر

لقمان الحكيم

لقمان الحكيم

بقلم
عبد الله كنون الحسني



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٠ ع ٠ م ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأخ الفاضل السيد أحمد كعبون

سألتنى أكرمك الله بالعلم ونوّر قلبك بالطاعة أن ألخص لك خبر لقمان الحكيم الذى ذكره الله فى كتابه ، وتاريخ حياته ، وأزيدك على ذلك شيئاً من حكمه ووصاياه لابنه ، فإنك جعلت موعظته القرآنية هجيراك ، والتزمْتَ العمل بها جهدك فحصل لك التشوف إلى المزيد شأن أهل النفوس العالية الذين لم يصلوا إلى مرتبة من الكمال إلا اشرأبوا لما وراءها .. . وفى الحديث بينما أيوب يغتسل خرَّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثو فى ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ، ولكن لا غنى لى عن بركتك . فإذا كان أيوب عليه السلام لم يستغن من المال ، وقد أغناه الله ، فكيف يستغنى المؤمن من الحكمة وهى ضالته التى لا يفتأ ينشدها ولا يستريح حتى يجدها ، ومن أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً .

وأمر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بطلب

الزيادة من العلم فقال : (وقل رب زدني علماً). وقال عليه السلام فيما يُروى عنه من الحديث : إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقربني من ربي فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم .

فها أناذا لما أرجوه من الفائدة لي ولك ، ولما ورد : ما أهدى مسلم إلى أخيه مثل كلمة حكمة يكفه بها عن ردي ، أو يدله على هدى ، أجيبك إلى ما سألتني ، وأشفي غليلك بقدر الإمكان من خبر هذا الحكيم الذي ارتضى الله قوله ، وقصه علينا في كتابه لنتمسك به ونأخذ منه بعزم الأمور. ومن الله سبحانه أستمد التوفيق وأستوهب الهداية إلى أقوم طريق .

اسم لقمان

هل هو عربى أو أعجمى ؟

إن قواعد الاشتقاق لا تأبى أن يكون هذا الاسم مأخوذاً من مادة اللقم الذى هو الأكل بسرعة ، ويؤيده سياق صاحب القاموس له فى لقم إذ قال: « وكسمعه أكله سريعاً ، والتقمه ابتلعه . ولقمان الحكيم اختلف فى نبوته » ومعناه على هذا سريع الأكل . وجاء فى الأغانى وعيون الأخبار أن أبا الأسود الدؤلى أكل وأقعد معه أعرابيًّا فرأى له لقماً منكراً فقال له: مااسمك؟ فقال : لقمان . قال : صدق أهلك إنك لقمان ؛ فهذا من ذلك ، وقالوا : كان لقمان أحد الأكلة .

على أنه إن كان أعجميًّا فمعناه هو هذا لأن الفعل العربى لقم معناه بالعبرى بلع ، ولا يبعد أن يكون كذلك فى سائر اللغات السامية الأخري ، ومنها الحبشية التى يقال إن لقمان من أهلها ، وهناك معان أخرى للقم كقولهم: رجل لقم بوزن كتف يعلو الخصوم ، ولقم الكتاب لقماً كتبه ، وأيضاً محاه من الأضداد ، ولكن الاشتقاق فى الراجح إنما هو مما ذكرنا أولا .

ومع هذا كله فإن اسم لقمان كان معروفاً عند العرب قديماً ، واشتهر به منهم لقمان بن عاد الأكبر صاحب النسور ،

وقد كان فيما قبل لقمان الحكيم على ما سيأتى . وإذن فهو عربى صليبة ، وإن كان ولا بد فهو من مشترك الأسماء فى اللغات السامية الأصل .

جنسية لقمان

واتفقت كلمة المفسرين وأهل الأخبار على أنه كان عبداً أسود ، وحينئذ فقد تحددت جنسيته فى أحد هذه الشعوب السوداء ، ولم يجز أن يكون عربى الأصل فضلا عن أن يكون هو لقمان بن عاد كما حكاه ابن عربى فى المحاضرات ، وكما توهمه بعض الأشعار التى ورد فيها ذكر لقمان العادى ووصفه بالحكيم .

وإذا لم يكن عربيًّا لذلك فبالأحرى لا يكون هو إيزوب اليونانى Esope — وإن تشابهت أخبارهما ، وتقاربت أحوالهما ، لأن الواقع أن الأشخاص من هذا النوع تنسب لهم خرافات كثيرة ، وتلتبس على المؤرخين ، فلا يميزون بين الصحيح منها والسقيم ، ويجعلون ما لهذا لذاك ، فيختلط الحابل بالنابل ، ويقع الباحث فى حيص بيص ، ولكن دقة الملاحظة ويقظة الحس فى مقارنة الروايات بعضها ببعض ، وأحوال الاجتماع لدى كل

أمة ، لا بد أن تصلا بنا إلى سل الشعر من العجين ، ورد الأمر إلى نصابه فى هذه القضية .

وإذا انتفى أن يكون عربيًّا أو يونانيًّا ، بقى أن ننظر فى هذا الشعب الأسود الذى ينتمى إليه ، فالمسعودى وابن فضل الله العمرى ، وأبو القاسم السهيلى جزموا أنه من النوبة ، وروى أهل التفسير مثل ذلك عن جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وزيد ابن أسلم ، وابن المسيب ، ومجاهد ، واقتصر عليه فى روح البيان . لكن ابن عباس ، ومجاهد روى عنهما أيضاً أنه كان حبشيًّا فاضطرب قولهما فيه فسقط الأخذ به .

وعامة أهل التفسير والمحدثين على أنه حبشى ، ويعضدون قولهم بأحاديث وآثار لا تخلو جميعها من ضعف . منها ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال كان حبشيًّا . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتخذوا السودان ، فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى ، وبلال المؤذن . أخرجه الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عساكر قال الطبرانى : أراد الحبشة[1] .

(١) الدر المنثور للسيوطى ج ٥ ص ١٦٠ — ١٦١ .

وروى سادات السودان أربعة : لقمان الحبشى ، والنجاشى ، وبلال ، ومهجع (مولى عمر) ، ولم يقل الفراء والزجاج بغير هذا القول . وحكى الأستاذ بولس مسعد من المعاصرين فى كتاب الحبشة فى منقاب من تاريخها الإجماع عليه ، وفيه مبالغة . . .

والحاصل أنه يبقى متردداً بين النسبة إلى النوبة والحبشة . وأنا أميل إلى أنه نوبى ، كما عليه المؤرخون وأهل السير وجمهور السلف ، لاسيما أن التفاصيل الدقيقة عن تاريخ حياته التى أعطاها هؤلاء يتقارب بعضها من بعض كما ستمر بذلك كله .

أما القول بأنه إسرائيلى فيأتى عليه ما أتى على القولين السابقين من أنه عربى أو يونانى ، ثم نزيده بطلاناً فى الكلام على نسبه .

نسبه

قال ابن إسحاق : هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام . وقال وهب : كان ابن أخت أيوب عليه السلام ، وقال مقاتل : ابن خالته[١] ؛ ومن المفسرين من جمع هذه الأقوال كالبيضاوى ، فقال : لقمان بن باعور من ولد آزر ، ابن أخت أيوب أو خالته ، وأكثرهم

---

(١) تفسير البغوى على هامش ابن كثير جـ ٦ ص ٤٥٤ .

على أنه أدرك زمن داود ، ولما شعروا بما فى ذلك من تطاول المدة قالوا إنه عاش ألف سنة .

وهذه الأقوال لا تثبت عند النقد ، لأن أكثرها من الإسرائيليات الموضوعة ، لتضليل الناس وتشكيكهم فى أمر دينهم ، والمفسرون إنما يروونها عن حسن نية ، ثم هم لا يكلفون أنفسهم بنقدها ، حتى يتميز الطيب من الخبيث ، بل يبقونها على حالها من التهافت والاضطراب ، فيأتى المغرضون من مضللين وباحثين غير مخلصين فيتخذونها حجة لمهاجمة الإسلام ، وكتابه العزيز ويشهد الله والعلم الصحيح أنهما براء من ذلك الهراء .

فأما أنه ابن باعور الذى هو ابن أخى إبراهيم ، ثم ابن أخت أيوب أو خالته ، فبعيد جداً لما علم من أن إبراهيم كان فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وأيوب فى الثامن عشر . فلو فرضنا أن كلاً من لقمان وأبيه وجده الذى كان معاصراً لإبراهيم لأنه أخوه عاش مائة سنة لما جاوز ذلك القرن العشرين ، فيبقى بين لقمان وأيوب قرنان كاملان من الزمن .

وأما أنه من أحفاد آزر أو ابن أخت أيوب أو خالته ، وأدرك زمن داود فهو حديث خرافة لأن داود كان فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، فبينه وبين أيوب سبعة قرون ؛ وبين

لقمان إذا قلنا إنه من أحفاد آزر عشرة قرون ، ولهذا قال الرواة إنه عاش ألف سنة ليغطوا الفضيحة .

والنتيجة أنه لا صحة لهذا النسب ، لأن الرجل من فصيلة غير الفصيلة السامية ، إذ هو من السودان كما علمت ، وهم أبناء حام ، وكذلك لا صحة لما عند السهيلى القائل بأنه نوبى ، من أنه لقمان بن عنقاء بن شروان أو سرور أو عنفاس بن سدون على اختلاف النسخ لانقطاع الرواية بذلك ، ولأن عادة العرب أنها لا تنسب مواليها وإنما تكتفى بأعلامهم الشخصية كبلال وسلمان وصهيب .

عصره وبلده

قد رأيت ما قيل من أنه ابن أخى إبراهيم فيكون فى العصر القريب منه ، وأنه ابن أخت أيوب أو خالته فيكون من أهل القرن الثامن عشر (ق . م) وأنه على كلا القولين أدرك زمن داود فيكون عاش تقريباً من القرن العشرين إلى القرن العاشر (ق.م).

ولا يصح من هذه الأقوال إلا أنه كان فى زمن داود لمقاربته للأخبار المروية عنه مع كثرة القائلين به ، حتى كاد يقع الإجماع عليه ، لولا إغراب الواقدى ، بقوله إنه كان فيما بين عيسى

ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وقد رأيت أنه من شدة الاعتداد بهذا القول اضطر القائلون بأنه من حفدة آزر أو ابن أخت أيوب أو خالته إلى الإسفاف فى القول بأنه عاش ألف سنة حتى يدركوا به زمن داود .

وأفاد المسعودى أنه ولد على عشر سنين من ملك داود ولم يزل باقياً فى الأرض مظهراً للحكمة والزهد إلى أيام يونس بن متى حين أرسله الله إلى أهل نينوى من بلاد الموصل . وملك داود كان سنة (١٠٤٠) قبل الميلاد ، وعليه فيكون مولد لقمان فى سنة (١٠٥٠) وقد امتدت حياته إلى منتصف القرن الذى بعده وربما زاد عليه ليكون أدرك زمن يونس .

وأنا وإن أعجبت بقول المسعودى هذا لعدم اضطرابه ، ولما فيه من البيان عن تاريخ حياة لقمان ، لا وثوق لى به ، ليس فقط لكونه يصادم ما يروى من أن لقمان كان حكيما معروفاً قبل مبعث داود ، ولكن تحديد تاريخ ميلاده بهذه الدقة ، وهو عبد نوبى عند المسعودى نفسه ، ليس مما تطمئن إليه النفس . فبقى أنه من المعاصرين لداود وكفى .

وقد ذكر الرواة أنه كان يقطن مدينة إيلة ، وهى مدينة لليهود ، فيحتمل أن سيده اليهودى كان منها وقد روى ذلك وأنه بعد تحريره بقى فيها .

صفاته وأخلاقه

كان لقمان عبداً أسود غليظ الشفتين مجدع الأنف مشقق القدمين مصفحهما قصير القامة ، وروى أنه قيل له : ما أقبح وجهك يا لقمان ! فقال: أتعيب بهذا على النقش أم على النقاش.

وهذه الأوصاف جاءت فى أحاديث مختلفة منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان ، قال : كان قصيراً أفطس من النوبة ، وما روى عن مجاهد أنه كان غليظ الشفتين مصفح القدمين ، وما أخرجه ابن أبى حاتم أيضاً وابن جرير وابن المنذر عن ابن المسيب أنه قال : إن لقمان كان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، ... إلخ [١] .

وليس هذا بضائره عند الله شيئاً فإنه سبحانه لا يجتبى عباده على الحسن والجمال ، وإنما يجتبيهم على ما يعلم من غائب أمرهم ومكنون ضميرهم ؛ وفى الحديث ، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم .

وقد عوضه الله تعالى ما فاته من جمال الخلق وآتاه الحكمة

---

(١) الدر المنثور جـ ٥ ص ١٦٠ — ١٦١ .

وشرفه بالذكر فى كتابه العزيز وروى كلامه ، فصار مما يتعبد به ، وليس وراء ذلك غاية يتطلبها العبد من الشرف والمجد .
وأخرج ابن جرير الطبرى عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب فسأله، فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبيًّا ذا مشافر . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد ، عن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال: ألست عبد بنى فلان الذى كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى ، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى ما لا يعنينى [1] . وروى هذا مختصراً أن الرجل قال له : ألست فلاناً الراعى ؟ فبم بلغت ما بلغت ؟ قال بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنينى ، وروى بلفظ آخر أنه قال له ألست عبد بنى فلان ؟ قال: بلى ، قال : ألست ترعى الغنم عند رجل ؟ قال : بلى ، قال: فبم بلغت هذه المنزلة؟ قال : بصدق الحديث وطول السكوت إلا من حاجة، وروى مطولا أيضاً قال عبد الله بن وهب : أخبرنى عبد الله بن

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٥٥ .

عياش القتبانى عن عمر مولى غفرة[١] قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بنى الحسحاس؟ قال : نعم؟ قال : أنت راعى الغنم؟قال : نعم،قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك ، قال : يا ابن أخى إن أصغيت لما أقول لك كنت كذلك ، قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة طعمتى ، وحفظى فرجى ، وقولى بصدقى ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ، فذاك الذى صيرنى إلى ما ترى[٢] .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عمرو بن واقد عن عبدة بن رباح عن ربيعة عن أبى الدرداء قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلا صمصامة سكيتاً طويل التفكير عميق النظر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخع ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد .

---

(١) بضم المعجمة هو ابن عبد الله المدنى أبو حفص قيل إن غفرة هى أخت بلال بن رباح ، ثقة كثير الحديث .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

وكان قد تزوج ، وولد له أولاد فماتوا ، [فلم يبك عليهم وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتى ما أوتى . . .[١]

فهذه الآثار كلها تدل على ما كان عليه من سمو الخلق وكمال الأدب مع الله تعالى ومع الناس ، فلا غرو أن يصل إلى ما وصل إليه من رفعة القدر وعزة الشأن .

حرفته

قال خالد بن الربيع : كان لقمان نجاراً ، وفى معانى الزجاج كان نجاداً بالدال ، وهو على وزن كتان من يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وابن المنذر عن ابن المسيب أنه كان خياطاً[٢] وهو أعم من النجاد ، وقال ابن عباس كان راعياً ، وقيل كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة .

وهذه الأقوال على اختلافها ليست مما لا يمكن الجمع بينها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٥٥ – ٤٥٦ .

(٢) الدر المنثور جـ ٥ ص ١٦١ .

كالأقوال السابقة فى جنسيته ونسبه وعصره ، بل إن اختلافها هذا مما يدل على صحتها لأنا نرى أن لقمان فى حكمته لا يعجزه أن يعانى حرفاً بدائية مثل هذه ، ولا يمكن أن يكون إلا عارفاً بها ، متقناً لها خصوصاً إذا تذكرنا أنه كان عبداً مملوكاً ، إنما يشترى للعمل والخدمة فهو بصدد أن ينجر ويخيط ويرعى ويحتطب ويفعل غير ذلك مما لم يذكره الرواة لأنه لم يبلغهم ، وهذا لا شك كان حين استرقاقه . وقبل عتقه ، وأما بعد ذلك فقد اشتهر بالحكمة ، ووطئ الناس على عقبه ، فأغناه الله عن هذه الأعمال ، ولا يبعد أن يكون بقى يحترف ببعضها صوناً لوجهه وطلباً للرزق الحلال ، كما كان يفعل بعض الزهاد والعباد ، إذْ كان منهم وإليهم ، وعلى كل حال فإن واحداً من هؤلاء الرواة لم يقل إلا بما بلغه ، وهم جميعاً فيما قالوا صادقون .

أما القول بأنه كان قاضياً فى بنى إسرائيل ، كما حكى عن الواقدى ومجاهد [١] ، فإنه يتمشى على القول بأنه إسرائيلى ، وقد علمت بطلانه ، ولا يمكن أن بنى إسرائيل الذين كانوا لا يرضون بالأنبياء من أنفسهم يرضون بقاض من الجنس الأسود كان عبداً لأحدهم .

---

(١) تفسير البغوى وابن كثير ج ٦ ص ٤٥٢ — ٤٥٥ .

مولاه

وقد ثبت لديك أن لقمان كان عبداً رقيقاً ثم عتق ، فمن هو مولاه الذى ملكه وأعتقه ؟

إن الرواية لتختلف فى هذا أيضاً ، فمنها ما تقول إنه رجل إسرائيلى كان قصاراً بمدينة إيلة اشتراه بثلاثين ديناراً ، فأقام عنده مدة ثم أعتقه وأعطاه مالا ، ومنها ما تقول إنه رجل عربى من بنى الحسحاس من الأزد نص عليه أبو عبيدة البكرى فى كتابه اللآلئ ، وقد تكرر ذلك فى خبر الرجل الذى مر عليه ، والناس مجتمعون حوله يسمعون منه الحكمة فجعل يسأله ويقول له : أنت لقمان ؟ أنت عبد بنى الحسحاس . . . وعن المسعودى أن اسم مولاه القين بن جبير .

وعلى كل حال فالرواية الثانية مع اعترافها بعتقه لا تقول إنه عتق عند مولاه العربى ، فيظهر أنه لبث فى الرق عنده مدة طويلة ثم باعه من الإسرائيلى الذى أعتقه ، ونحن مضطرون لقبول رواية استرقاقه عند العربى ، لأن فيها تفسيراً لسبب هذه العناية من العرب بأخباره والإقبال على رواية حكمته إذْ كان قد نشأ فيهم ودرج بينهم فعرفوه وتقصَّوا أحواله ، ولقد كان عندهم بمضيعة ، وفى مكان ليس بذاك ، فلما شرفه الله بالحكمة وأعز

أمره عجبوا منه كل العجب واغتبطوا به غاية الاغتباط ، وصاروا يضربون به الأمثال وينقلون ما يصدر عنه من الأقوال ، وليس هذا فقط فإن الروايتين تتكافآن من جهة السند ولا تعارض بينهما فلا موجب لأن نقبل إحداهما ونرد الأخرى .

أول ماظهر من حكمته

أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى مسلم الخولانى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لقمان كان عبداً كثير التفكير حسن النظر كثير الصمت ، أحب الله فأحبه الله ، فمن عليه بالحكمة ، نودى بالخلافة قبل داود فقيل : له يالقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض تحكم بين الناس؟ قال لقمان : إن أجبرنى ربى قَبِلْتُ ، فإنى أعلم أنه إن فعل ذلك أعاننى وعلمنى وعصمنى ، وإن خيرنى اخترت العافية ، ولم أسأل البلاء ؛ فقالت الملائكة : ولم يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، فيخذل أو يعان ، فإن أصاب فالبحرى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن فى الدنيا ذليلا فهو خير من أن يكون شريفاً ضائعاً . ومن يخير الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ، ولا يصيب الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطى الحكمة ،

فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودى داود بعده بالخلافة فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان ، فوقع فى الذى حكاه الله عنه : فصفح الله تعالى عنه وتجاوز ، وكان لقمان يؤازره بعلمه وحكمته ، فقال داود : طوبى لك يا لقمان! أوتيت الحكمة ، فصرفت عنك البلية ، وأوتى داود الخلافة فابتلى[1] . وهذا الحديث روى على وجوه بطرق مختلفة ، ولكنها لا تصح .

وجاء أثر غريب عن قتادة رواه ابن أبى حاتم ، قال حدثنا أبى ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى ابن عبيد الخزاعى ، حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة ، قال : خير الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة فاختار الحكمة ، فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة فأصبح ينطق بها ، فقيل له كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزمة لرجوت فيها الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيرنى ، فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلى . وهذا من رواية سعيد بن بشير ضعيف[2] .

وعن عكرمة قال : كان لقمان أهون مملوك على سيده ، وأول

---

(١) الدر المنثور ج ٥ ص ١٦١ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٥٦ .

ما روى من حكمته أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج[١] وأطال فيه الجلوس ، فنادى لقمان أن طول الجلوس على الحاجة يسيح منه الكبد ، ويكون منه الباسور ، ويصعد الحر إلى الرأس فخرج وكتب حكمته على الحش .

فهذه الروايات وإن كانت ضعيفة السند تفيد فى الجملة كيف ابتدأ لقمان يقول الحكمة ، وأن ذلك كان موهبة من الله الذى يؤتى الحكمة من يشاء .

هل كان نبيًّا ؟

فى الأثر السابق عن قتادة أن لقمان خيّر بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة ولا غرابة فى هذا ، فقد قال بنبوته عكرمة والشعبى والسدى ، حكاه عنهم الواحدى .

وقال وهب ثلاثة أنبياء سود الألوان لقمان وذو القرنين وصاحب الأخدود .

وقيل لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط ، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال : كان لقمان نبيًّا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى وهو

---

(١) تسميه بعض الروايات الأخرى الحش والمبرز .

ضعيف جداً[١] ومنشأ هذا القول من الآية : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) فإن القائلين بنبوته فسروها بالنبوة . وقال ابن عباس : يعني العقل والفهم والفطنة من غير نبوة ، وقال لقمان لم يكن نبيًّا ولا ملكاً ، ولكن كان راعياً أسود رزقه الله تعالى العتق ورضي قوله ووصيته فتمسكوا بوصيته .

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة ،وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبيًّا وعلى هذا الجمهور .

وأيضاً فإن كونه عبداً مسه الرق ينافى كونه نبيًّا لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها . قاله ابن كثير ولكن يرد عليه قصة يوسف وقال فى روح البيان : ويؤكد كونه حكيماً لا نبيًّا كونه أسود اللون لأن الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلا حسن الشكل ، حسن الصوت ، ولكن يرد عليه أيضاً أن الحسن ليس خاصًّا بالبيض وقوله تعالى : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ثم أورد هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ،أقول حقًّا : لم يكن لقمان نبيًّا ، ولكن كان عبداً كثير التفكر ، حسن

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٥٥ .

اليقين ، أحب الله فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، ولو ثبت هذا لرفع الخلاف ، إذ لا عطر بعد عروس . والسيوطى يختار الوقف فى هذه المسألة إذ يقول فيها وفى نظيراتها :

واختلفت فى خضر أهلُ النقول
قيل نبى وولى ورسول
لقمانَ ذى القرنين حوّا مريم
والوقفُ فى الجميع رأىُ المعظم

على أن القول برسالته غريب ،ولم نر من ذكره غير السيوطى .

والحاصل أن القول بنبوته لا يصح فضلا عن رسالته وإنما هو رجل صالح أكرمه الله بالحكمة : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) .

وهذا القول هو الذى درج عليه فى نظم بدء الأمالى حيث قال :

وذو القرنين لم يعرف نبيًّا كذا لقمان فاحذر من جدال

ليس هو بلعام

ذهب المستشرقون فى لقمان مذاهب شتى وأكثرهم على أنه إيزوب اليونانى المتقدم الذكر ، لكن الدكتور درنبورج فى مقدمته لأمثال لقمان المنشورة مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٥٠ أتى فيه برأى غريب ، وزعم أنه بلعام المشهور بفتواه لفرعون فى تقتيل أولاد بنى إسرائيل الذكور، مستدلا على ذلك بدليلين : الأول أن اسم بلعام بالعبرى هو لقمان بالعربى لأن بلع فى العبرى بمعنى لقم فى العربى وزيادة الألف والميم فى الأسماء العبرانية كزيادة الألف والنون فى العربية فيكون بلعام حينئذ هو لقمان .

ولكن فاته أن هذه ترجمة اسم بلعام لا الاسم نفسه ، وأن الأسماء العبرية وغيرها نقلت إلى العربية كما هى أو بتغيير قليل ولم تترجم ترجمة حرفية ، كما يحاول أن يوهمنا ذلك فى اسم لقمان على أن اسم بلعام نفسه قد نقل إلى العربية كما هو ، ولكن مراداً به هذا الشخص الذى أطلق عليه فى التوراة وهو بلعام ابن باعورا الذى يقال إنه كان قريباً لأيوب عليه السلام ، فهما إذن شخصان مستقلان : لقمان وكان عبداً نوبيًّا ، وبلعام وكان عالماً إسرائيليًّا .

الدليل الثانى توافق اسم أبى بلعام وصفته بالحكمة وقرابته لأيوب مع اسم أبى لقمان وصفته بالحكمة وقرابته لأيوب فيما يقول

المفسرون ، وهذا مردود بما سبق تحقيقه من أن ذلك النسب المذكور للقمان لا يصح ، وكذا قرابته لأيوب لأنه عبد نوبى من جنس غير جنس بنى إسرائيل ، وأما صفة الحكمة فهى مشتركة بين الكثير من الناس ولا اختصاص لها بلقمان ولا ببلعام حتى تكون شاهداً فى هذا الباب ، وذلك فضلا عما بين زمن بلعام وزمن لقمان من البعد فإن بلعام كان فى زمن موسى ، أعنى فى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، ولقمان كما علمت كان فى زمن داود أى فى القرن الحادى عشر .

نعم قد يكون ذلك النسب هو لبلعام حقيقة وتلك القرابة بينه وبين أيوب ثابتة ، وخصوصاً مع تقارب زمنهما فاشتبه ذلك على بعض الرواة فجعل ما لبلعام للقمان ، وهذا هو السبب فى عدم الثقة بهذه الأخبار الإسرائيلية لأنها قليلة التحقيق وذاهبة فى غير طريق ، وقد يكون السبب فى نسبة ذلك للقمان أنفة بعض العلماء من إثبات القرابة بين بلعام الكافر وبين أيوب النبى ، كما درج عليه الأستاذ محمد فنى فى الرد على درنبورج[1] ، وهذا من الغلو فى التعظيم فإنه ليس بلازم أن يكون جميع قرابة النبى مؤمنين بعدما ذكر الله عز وجل من أمر ولد نوح وعم النبى أبى لهب ما ذكر .

(١) انظر كتاب مواهب الرحمن فى أمثال لقمان مع هدم البرج الذى شيده درنبورج طبع مصر ١٣٢٠ .

ثم إن جميع ما قلناه . إنما هو على سبيل التنزل ومجاراة بحث الدكتور ، وإلا فالفرق بين لقمان وبلعام كما قال الأستاذ فنى ليس مما يخفى على أحد ، لأن الأول من خيار المؤمنين والثانى كافر خاسر وقال الله تعالى فى الأول (ولقد آتينا لقمان الحكمة) الآية ، وفى الثانى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القومُ الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) .

قال العلماء : هو بلعام بن باعورا كان فى زمن موسى عليه السلام وهو الذى أفتى فرعون بتقتيل الذكور من أولاد بنى إسرائيل ثم قتل هو فى مدة يوشع بن نون خليفة موسى .

بينه وبين لقمان العادى

ألمعنا إلى أن هناك من يقول فى لقمان الحكيم إنه لقمان بن عاد صاحب النسور على ما حكاه ابن عربى فى المحاضرات ، والجاحظ نفسه فى عبارة له فى البيان والتبيين يشير إلى أن القول

بأنه غير لقمان العادى إنما هو قول المفسرين .

وفى الظاهر لا مانع من أنه هو فالاسم متحد ، ووصف الحكمة مشترك بينهما والإيمان موجود فى لقمان العادى أيضاً ، لأنه كان ممن آمن بهود عليه السلام ، فيجوز ذكره فى القرآن على سبيل المدح ، بل إنه نوجى فى الغيب ، على ما تقول الرواية[١] ، بالتخيير بين بقاء سبع بقرات أو سبعة أنسر ، كما نودى لقمان الحكيم بالتخيير بين النبوة والحكمة ، فما بقى شىء يمنع كون هذا هو ذاك ، ولكن إطباق الرواة والمفسرين وأهل التاريخ على أنه غيره ، واختلاف العصر الذى كان يعيش فيه كل واحد منهما عن الآخر فإن عصر هود الذى هو عصر لقمان العادى متقدم جداً على عصر داود الذى هو عصر لقمان الحكيم ، وكون هذا كان أسود نوبياً فى الراجح كل ذلك مما يجعلنا لا نقبل أن يكون لقمان العادى هو لقمان الحكيم .

وإذا لم يكن هو إياه فمن المناسب أن نذكر طرفاً من أخباره وفيها مزيد تمييز بينه وبين لقمان الحكيم .

---

(١) التيجان لوهب بن منبه ص ٧٠ وتفسير البغوى وابن كثير ج ٣ ص ٤٩٩ .

ذكر لقمان العادى

هو لقمان بن عاد الأكبر أحد الذين ذهبوا فى وفد عاد إلى مكة يستسقون لها لما قحطت بسبب كفرها وتكذيبها لنبى الله هود عليه السلام ، فلما كان الوفد بمكة انخزل منه هو ومزيد بن سعيد ، وكانا قد آمنا بهود ، فلم يدخلا فيما دخل فيه الوفد ودعوا الله لأنفسهما ، فقيل لهما قد أعطيتما مُنا كما فاختارا لأنفسكما ، إلا أنه لا سبيل إلى الخلود، فقال مزيد : اللهم أعطنى براً وصدقاً فأعطى ذلك ، وقال لقمان : اللهم أعطنى عمراً فقيل له اختر لنفسك عمر سبعة أعنز (ويروى سبع بقرات) عفر فى جبل وعر لا يناله القطر أو عمر سبعة أنسر ؛ فاختار الأنسر ، فكان يأخذ الفرخ منها حين يخرج من البيضة ويأخذ الذكر لفضل قوته ، فإذا مات أخذ غيره ، وكل نسر يعيش ثمانين سنة على ما قيل، حتى انتهى إلى السابع وكان سماه (لبداً) مؤملا أنه أبداً لا يموت ، ولكنه مات ومات لقمان ، وذلك فى عصر الحرث الرائش ملك اليمن .

وأما وفد عاد فإن رئيسهم قيل بن عفير قال : اللهم إن كان هود صادقاً فاسقنا فقد هلكنا ، فأنشأ الله سحابات بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم نادى مناد من السحاب : يا قيل اختر من هذه السحابات ، فقال : اخترت السوداء فإنها أغزر ماء فساقها الله

بما فيها من النقم إليهم ، فلما رأوها استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا فقيل لهم : (بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمِّر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين) كما ذكر الله تعالى فى كتابه .

وقد ذكرت الشعراء لقمان بن عاد ونسره فقال النابغة :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لُبَد

وقال آخر :

يا نسر لقمان كم تعيش وكم
تسحب ذيل الحياة يا لُبَدُ

قال الجاحظ وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر ، ولُقَيم بن لقمان فى النباهة والقدر وفى العلم والحكم وفى اللسان وفى الحلم ، وهذان غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن على ما يقول المفسرون ، ولارتفاع قدره وعظم شأنه قال النَّمِر بن تَوْلَب :

لُقَيَمُ بن لقمان من أخته
فكان ابنَ أخت له وابنما

ليالىَ حُمِّق فاستحصنت
عليه فغرّ بها مُظلما

فيُغرّ بها رجل مُحكَم

فجاءت به رجلا مُحكَما

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان إنى امرأة مُحْمِقة ولقمان رجل مُنجِب مُحكَم وأنا فى ليلة طهرى فهى لى ليلتك ، ففعلت فباتت فى بيت امرأة لقمان فوقع عليها فأحبلها بلقَيم فلذلك قال النمر بن تولب ما قال .

والمرأة إذا ولدت الحمقى فهى مُحمِقة ولا يعلم ذلك حتى يُرى ولد زوجها من غيرها أكياساً .

ثم ذكر الجاحظ أشعاراً كثيرة فيها ذكر لقمان بن عاد وابنه لقيم ومدحهما والتمثيل بهما فى الحكمة والبيان والعلم والفهم كقول ابنة وثيمة من قطعة :

بلسان لقمان بن عاد وفصل خطبته الحكيمه

وقول المسيّب بن علس :

ولأنت أبين حين تنطق من

لقمان لما عىَّ بالأمر

ومما يجدر ذكره هنا ما قيل من أن لقمان بن عاد الأكبر هو الذى بنى سد مأرب ، ورصف أحجاره بالرصاص والحديد ، ذكره فى بلوغ الأدب .

وذكر فيه أيضاً أن زرْقاء اليمامة المشهورة بحدة البصر هى

من بنات لقمان بن عاد ، وأن صحر [1] من نساء العرب المشهورات بالعقل والكمال والفصاحة هى أيضاً بنته أو أخته .

وأخبار لقمان بن عاد تحتمل جزءاً ، وهى على ما فيها من تزيّد الرواة تحمل طابعاً خاصًّا هو طابع العروبة وعصر الجاهلية وأساطيرها ومثيولوجياها ، فالفرق بينها وبين أخبار لقمان الحكيم واضح . وأوضح منه الفرق بين حِكَمهما وهذا ما قصدنا إليه فى ذكر لقمان العادى .

ابنه

اختلف فى اسمه على أربعة أقوال ، قال السهيلى : وابنه ثاران فى قول ابن جرير والقتيبى ، وقال الكلبى : مِشْكم ، وقال النقاش : أنعم ، وقال غيرهم : ماتان .

وقال القتيبى : كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما ، ودل على هذا قوله لا تشرك بالله .

وروى أنه قال لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد ، فهل يعلمها الله؟ فقال له : يا بنى إنها إن تك مثقال حبة الآية .

---

(١) بضم أوله غير مصروف .

ويأتى فى أبيات من الشعر أن الذى سأله هذا السؤال هو ابنته لا ابنه .

وقيل : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جنبه وجعل يعظ ابنه موعظةً موعظةً ويُخرج خردلة خردلة ، فنفد الخردل ، فقال يا بنى وعظتك موعظة لو وعظتها جبلا لتفطر ، فتفطر ابنه ومات[١] .

وهذا إن صح مخالف لسنة الأنبياء التى كانت سيرةُ لقمان على غرارها ، فقد كان النبى (ص) يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم ، ولا يحرجهم هذا الإحراج .

ولم يعظ أحد ابنه ما وعظه لقمان ومع ذلك لم ينقل عنه شىء من الحكمة كما نقل عن أبيه ، لأن الأمر فى هذا الصدد على ما قال حفنى ناصف :

إذا ورّث الجهال أبناءهم غنى
وما لا فما أشقى بنى الحكماء

---

(١) الدر المنثور ج ٥ ص ١٦٢ .

قبر لقمان

قال فى معجم البلدان : وبطبرية من المزارات فى شرقى بحيرتها قبر سليمان بن داود عليهما السلام ، والمشهور أنه فى بيت لحم فى المغارة التى فيها مولد عيسى عليه السلام ، وفى شرقى بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه ، وله باليمن قبر والله أعلم بالصحيح منها ا ه .

ولعل الذى باليمن أن يكون قبر لقمان العادى وهو الذى فى كتاب التيجان لوهب بن مُنَبِّه .

حكمة لقمان

إن حكمة لقمان مأثورة وكثيرة ، لكنها غير متصلة الرواية ولا صحيحة الإسناد . وإذا استثنينا ما ورد منها فى القرآن العظيم وبعض الأحاديث النبوية الصحيحة — وهى قليلة جداً — لا يبقى بيدنا منها ما ينسب له على طريق الجزم ، إنما يمكن للباحث أن يطمئن إلى أن هذه الحكمة له إذا قاسها على ما علم من حياته وأسلوب معيشته وطريقة تفكيره .

وفى الغالب أن النزعة الدينية تسود حكمة لقمان ثم إنها إلى التزهيد فى الدنيا أقرب منها إلى الترغيب فيها ، وفى الناحية الخلقية

يغلب فيها التخلى على التحلى ، ولأجل ذلك اعتنى بحكمته ، فذكرت فى القرآن إذ كانت مساوقة لمنهجه وعلى أسلوبه فى الدعوة . وتأمل خبر سويد بن الصامت الآتى قريباً فإنه يزيدك بهذا يقيناً .

هذا من جهة الكيفية وأما من جهة الكمية فقد قال وهب ابن منبه : قرأت فى حكمة لقمان أكثر من عشرة آلاف باب ، وقال ابن خير فى فهرسته : (حكمة لقمان) حدثنى بها أبو محمد بن عتاب رحمه الله ، قال : حدثنى بها أبى رحمه الله عن أبى عثمان سعيد بن سلمة عن القاضى أبى عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج ، قال : حدثنا عبد العزيز بن أبى رافع بمصر ، قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن البراء ، حدثنا عبد المنعم بن إدريس عن وهب بن منبه رحمه الله اهـ .

وهذا إما أن يعنى حكمته الخاصة بالسفر الآتية من طريق عبد المنعم المذكور ، وإما أن يعنى كتاباً برمته يدعى بحكمة لقمان ، فيكون مصداقاً لقول ابن منبه فى عدد حكم لقمان وكَثْرتها .

مجلة لقمان

روى ابن هشام فى السيرة عن ابن إسحاق عن عاصم ابن عمرو بن قتادة الأنصارى ، ثم الظفرى عن أشياخ من قومه ، قالوا : قدم سويد بن الصامت أخو بنى عمرو بن عوف مكة حاجًّا أو معتمراً ، وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه ، وهو الذى يقول :

ألا رب من تدعو صديقاً ولو ترى
مقالته بالغيب ساءك ما يفرى
مقالته كالشهد ما كان شاهداً
وبالغيب مأثور على ثغرة النحر
يسرك باديه وتحت أديمه
نميمة غش تبترى عقب الظهر
تبين لك العينان ما هو كاتم
من الغل والبغضاء بالنظر الشزر
فرشنى بخير طالما قد بريتنى
وخير الموالى من يريش ولا يبرى

وبعد أن أورد له شعراً آخر قال : فتصدى له رسول الله

صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك؟ قال : مجلة لقمان يعنى حكمة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها علىّ ، فعرضها عليه فقال له : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى علىّ ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا لقول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون إنا لنراه قد قتل وهو مسلم، فهذا ما نعنى من مقاربة حكمة لقمان لروح القرآن ، ولما ذكر السهيلى مجلة لقمان ، قال : هى الصحيفة وكأنها مفعلة من الجلال والجلالة ، يعنى العظم والعظمة .

وقد ذكر خبر سويد هذا ، زيادة على ابن هشام ، ابن جرير الطبرى فى تاريخه ، وابن حجر فى الإصابة، وابن الأثير فى أسد الغابة وغيرهم .

أمثال لقمان

وثم مجموعة من الأمثال تنسب إلى لقمان وهى أقصوصات صغيرة ذات مغزى تقال على ألسنة الحيوانات وشبهها ، وعددها واحد وأربعون (٤١) وهى مشهورة عند الأوربيين جداً ، وقد نشرت وترجمت إلى اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية ، ولها طبعات مختلفة مجردة ومصحوبة بالترجمة ، ومن أحسنها وأكثرها إتقاناً طبعة شربونو (Cherboneau) مع الترجمة الفرنسية فى باريس سنة ١٩٢٥ ، ولكن العلماء لا يثقون بهذه النسبة إلى لقمان والحق معهم ، فإن هذه الأمثال لا تحمل طابع الحكمة اللقمانية الذى بيناه آنفاً ، ثم إن لغتها ليست باللغة الفصيحة التى روى بها أسلافنا حكمة لقمان ؛ بل هى إلى العامية أقرب ، فلعل أحد المستشرقين نقلها إلى العربية عن إيزوب اليونانى ، ونسبها إلى لقمان من حيث إنهما شخص واحد عند أكثرهم ، ولذلك فنحن لا نعرج عليها فى مجموعتنا هذه ، وإنما نروى من قوله ما التقطناه من كتب الحديث والتفسير والأدب والأخبار ، راجين إن شاء الله أن يكون صحيح النسبة إلى هذا الحكيم ، مقتفين فى التذكير به سبيل القرآن العظيم ، والله ينفعنا به وبكل موعظة حسنة ، ويوفقنا للحق والصواب بمنه آمين .

لقمان فى القرآن

قال الله عز وجل :

(ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أن اشكُرْ لله ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد * وإذْ قال لقمان لابنه وهو يعِظه يا بُنَىَّ لا تشْرك بالله ، أن الشرك لَظلْم عظيم ، ووصَّيْنا الإنسانَ بوالديه ، حَملتْه أُمُّه وَهْناً على وَهْن وفِصاله فى عامين ، أَن اشْكر لى ولوالديك ، إلىَّ المَصِير * وإن جاهداك على أَن تُشْرك بى ما ليس لك به علمٌ فلا تطِعهما ، وصاحِبْهما فى الدنيا مَعْروفاً واتَّبعْ سَبِيلَ من أناب إلىّ ، ثم إلىَّ مرجعُكم فأُنبئكم بما كنتم تعملون * يا بنى إنها إن تكُ مِثْقَالَ حبَّةٍ من خردل فتكنْ فى صخرة أَو فى السموات أو فى الأَرض يأْتِ بها الله ، إن الله لطيفٌ خبيرٌ * يا بنى أَقِم الصلاة ، وَأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر ، واصْبر على ما أَصابك ، إن ذلك من عزم الأُمور * ولا تصَعِّرْ خدَّك للناس ولا تمْش فى الأَرض مَرَحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقْصِد فى مشيك واغْضض من صوتك إن أَنْكَر الأَصوات لَصَوتُ الحمير)

تفسير هذه الآيات الكريمة

يقول الله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) أى العقل والفهم والفطنة من غير نبوة ، كما روى عن ابن عباس (أن اشكر لله) أى اعبده مخلصاً له الدين فإن ذلك من ثمرة الحكمة ، (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) أى فإنما يعود نفعه عليه ، وليس لله عز وجل فى ذلك نفع (ومن كفر فإن الله غنى حميد) أى لا يضره كفر من كفر ، كما لا ينفعه شكر من شكر .
(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه) أى يوصيه ،(يا بنى) بالتصغير للتعبير عن العطف والإشفاق (لا تشرك بالله) شيئاً فى عبادتك إياه (إن الشرك لظلم عظيم) يظلم الإنسان به نفسه لأنه يستحق به عذاب الله (ووصينا الإنسان بوالديه) أى أمرناه ببرهما وعدم عقوقهما (حملته أمه وهناً على وهن) أى حالة كونها ذات ضعف طبيعى مما هو فى تكوين المرأة مضافاً إلى ضعف الحمل والولادة أى مشقتهما المؤدية إلى الضعف (وفصاله فى عامين) أى فطامه وانتهاء رضاعه ، فهذه مشقة أخرى زائدة على الحمل والولادة، وبذلك استحقت الأم التنويه والتخصيص بالذكر ، وكان لها ثلاثة أمثال ما للأب من البر كما ورد ذلك فى الحديث (أن اشكر لى ولوالديك) جملة

تفسيرية لقوله وصينا ، جاءت بعد ما ذكر من حق الأم على ولدها لبيان أن الوالدين يستحقان أعظم الشكر خصوصاً وقد قرن شكرهما بشكره عز وجل (إلىّ المصير) أى المرجع والمعاد بعد الموت ، وحينئذ يجازى المحسن ويعاقب المسىء (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم) أى دليل وحجة ، ولا حجة ولا دليل على أن لله شريكاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (فلا تطعهما) فى ذلك فإن الأمر بالبر أصله الشكر على النعمة التى أسداها له ، وعدم نكران الجميل بالعقوق المستوجب للعقاب ، فإن أطاعهما فى الشرك بالله فقد ضيع شكر المنعم الأعظم واستوجب العذاب المقيم الذى دُعى إلى الفرار منه (وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) أى ولا يحملنك عدم طاعتهما فى معصية الله والكفر به على تضييع حقهما وعدم الإحسان إليهما ، بل عاملهما بالمعروف وامتثل أمر الله (واتبع سبيل من أناب إلىّ) أى من أطاعنى وأخلص لى العبادة (ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى بأعمالكم التى يحصيها كتابكم ، يعنى وأجازيكم عليها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهاتان الآيتان نزلتا فى سعد بن أبى وقاص (ض) وكانت أمه حلفت ليَدعَنَّ دينه أو لا تأكل ولا تشرب حتى تموت ، فهما معترضتان بين أول كلام لقمان وآخره للمناسبة (يا بنى

إنها) أى الخطيئة ، وكان ابنه سأله قائلا : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد ، فكيف يعلم بها الله . فأجابه إنها (إن تلك مثقال حبة من خردل) أى وزنها ، وهو كناية عن أصغر شىء يأتيه الإنسان (فتكن فى صخرة) أى فى قلبها لو أمكن ذلك (أو فى السموات أو فى الأرض) على تباعد أقطارهما (يأت بها الله) أى يحضرها يوم القيامة ، ويحاسب عليها (إن الله لطيف خبير) أى عالم بخفيات الأمور وبواطن الأشياء ، فكيف يغيب عنه ما يفعل العباد مُسْتَتِرِّين به :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل
خلوتُ ولكن قل علىَّ رقيب
ولا تحسبَنَّ الله يغفل ساعةً
ولا أن ما يُخفى عليه يغيب

(يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) من الأذى والمصائب ، لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد (إن ذلك من عزم الأمور) أى الصلاة وما بعدها ، ومعنى كونها من عزم الأمور ، أنها من الواجبات والعزائم التى لا يجوز التهاون بها والتفريط فيها (ولا تصعّر) وفى قراءة ولا تصاعر (خدك للناس) أى تمل بوجهك عنهم تكبراً (ولا تمش فى الأرض مرحاً) عجباً وتيهاً

(إن الله لا يحب كل مختال) متبختر فى مشيه (فخور) كثير الفخر على غيره (واقصد فى مشيك) أى امش مشياً متوسطاً بين البطىء والسرعة (واغضض من صوتك) أى اخفض منه ، ولا ترفعه حتى لا تؤذى المستمع (إن أنكر الأصوات) الحيوانية (لصوت الحمير) فإنها ترفع أصواتها جداً ، فتزعج الناس ، ولا ينبغى للإنسان المهذب ، أن يكون مثله مثل الحمار فى ذلك .

هذه وصية لقمان التى ضمنها الله كتابه العزيز ، لفائدتها ونبلها ، وكونها من الحكم العملية التى تنفع الناس فى السلوك والمعاملة ، فضلا عما جمعته من أمهات الفضائل التى هى الإيمان والبر والطاعة لله عز وجل وإصلاح المجتمع ، فلو لم يكن له من الحكم إلا هذه الوصية العظيمة لكفته علماً ونبلا .

لقمان فى الحديث

البخارى قال : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذلك ؛ ألا تسمع لقول لقمان (يا بنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم) ورواه مسلم من حديث الأعمش به ، وفى الموطأ بلاغاً عن الإمام مالك أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: « يا بنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء » ورواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة مرفوعاً بقريب من لفظه ، ورواه ابن عبد البر فى كتاب جامع بيان العلم وفضله عن سليمان التيمى وزاد فى المستخرجة بأثر قوله : وزاحمهم بركبتيك فلعل الرحمة تنزل عليهم فتصيبك معهم ، ولا تجالس الفجار لئلا ينزل عليهم سخطه فيصيبك معهم .

وفيها أيضاً ــ بلاغاً عنه ــ أنه قيل للقمان مابلغ بك مانرى ؟

يريدون الفضل، فقال لقمان : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني ، وعلى قول العلماء إن بلاغات الإمام مالك كلها موصولة إلا أربعة ليس ما ذكر هنا منها فإن هذين البلاغين فى حكم الرفع .

على أن هناك بلاغات أخر عن الإمام مالك فى غير الموطأ مما رواه الدارقطنى وغيره فى هذا الموضوع لم نسلك بها مسلك الحديث المرفوع وإنما رويناها فى باب حكم لقمان لأن العلماء لم يحكموا إلا لبلاغاته التى أخرجها هو نفسه فى موطئه ، فما عداها لا يعم القول بوصله .

وكذلك فعلنا فى كل ما رواه أئمة الحديث بأسانيدهم إلى جمهور الصحابة وبعض التابعين موقوفاً عليهم ، فإنه وإن كان يحتمل الرفع لكن التحرى حملنا على إثباته فى باب الحكمة .

وفى هذا المعنى يقول العلامة صديق حسن خان فى تفسيره وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعات من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه ، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شىء ولم يثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشىء منها حتى نقبله ، وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه فى هذا الموضع وفيه كفاية اهـ .

على أننا روينا ما رفع منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإن يكن سنده ضعيفاً فإن الضعيف فى هذا الباب يعمل به .

وأخرج الإمام أحمد والحكيم الترمذى والحاكم فى الكنى والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله عز وجل إذا استودع شيئاً حفظه ، وذكره السهروردى فى عوارف المعارف بسياق آخر قال : صحب رجل عبد الله بن عمر ، من مكة إلى المدينة ، فلما أراد مفارقته شيعه وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال لقمان لابنه : يا بنى إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه ، وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم أعمالك . وأخرج الحاكم بسنده عن أبى موسى الأشعرى (ض) قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى إياك والتقنع فإنها مخوفة بالليل مذلة بالنهار . قال هذا متنٌ شاهده إسناد صحيح .

لقمان فى الشعر

الشافعى رحمه الله يذكر لقمان وفضله :

لا يدرك الحكمة مَن دهرَه يكدح فى مصلحة الأهل
ولا ينال العلم إلا امرؤ خال عن الأغراض والشغل
لو أن لقمان الحكيم الذى سارت به الأمثال فى الفضل
بُلى بفقر وعيال لما فرّق بين الثور والبغل

ويروى بين التبن والبقل .

فلا تلومن أخا فاقة وعيلة إن كان ذا جهل

بعض الظرفاء :

فصاحة سحبان وخط ابن مقلة
وحكمة لقمان وزهد بن أدهم
إذا اجتمعت فى المرء والمرء مفلس
فليس يساوى فى الورى نصف درهم

عبد بنى الحسحاس ناظماً قول لقمان :

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له
عند الفخار مقام الأصل والورق
إن كنت عبداً فنفسى حرة كرماً
أو أسود الخَلْق إنّى أبيض الخُلُق

وأنشد الجاحظ قول بعض الشعراء ناظماً حكمة لقمان :

ما إن ندمت على سكوتى مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

ومن معجم الأدباء فى ترجمة أبى جعفر بن البهلول القاضى شعر لا يدرى هل هو من نظمه أم تمثل به :

يقولون همّت بنت لقمان مرة
بسوء وقالت يا أبى ما الذى يخفى

فقال لها ما لا يكون فأمسكت
عليه ولم تمدد لمنكرة كفا

وما كل مستور يغلق دونه
مصاريع أبواب ولو بلغت ألفا

بمستتر والصائن العرض سالم
ولا يلبث الزور المفكك أن يطفا

وأنشد القاضى عياض فى برنامجه لابن المغيرة :

فما تنفع الآداب والعلم والحجا
وصاحبها عند الكمال يموت

كما مات لقمان الحكيم وغيره
فكلهم تحت التراب صموت

لقمان فى أمثال العرب

قالوا : تجشأ لقمان من غير شبع ، وهو مثل فيمن يتحلى بغير ما هو فيه .

وقالوا : طال الأمد على لبد .

ولبد اسم نسر لقمان العادى وهو منصرف لأنه غير معدول ، وسبق الكلام عليه .

ومثله قولهم : أعمر من لبد .

ومن أمثالهم : أشبه شرجٌ شرجاً لوْ أن أُسَيْمراً ، يضرب للأمرين يشتبهان ، ويفترقان فى شيء وأصله ، فيما زعموا أن لقمان ابن عاد ، قال للقيم : أقم هاهنا حتى انطلق إلى الإبل ، فنحر لقيم جزوراً ، ولم يخبأ منها شيئاً للقمان مخافة لائمته ، وحرق ما حوله من السمر الذى بِشَرْج — وشرج هذا وادٍ — ليخفى المكان فلما جاء لقمان جعلت الإبل تشير بأخفافها الحمر فعرف لقمان المكان وأنكر ذهاب السمر فقاله .

ومن ذلك قول الشاعر فى ذم الحرص :

تراه يطوِّف الآفاق حرصاً   ليأكل رأس لقمان بن عاد

وهو كناية عن الشيء العظيم فإن رأس لقمان لمن ظفر به أكلة لم يسمع بمثلها .

وهذه الأمثال وإن لم تتعلق بلقمان الحكيم إلا أننا ذكرناها هنا جمعاً للنظائر ، واعتداداً بالاسم مجرداً عن التعيين إذ ربما يقع فيه اشتباه ويحتاج إلى التبيين .

نوادر لقمان

أراد لقمان يوماً أن يعظ ابنه ، فمضى به إلى مدينة ومعهما حمار يسوقانه ، وبينما هما سائران ، إذ مرا برجل فقال لهما: إنى لأعجب من ضعف عقلكما أتتركان الحمار يمشى من غير راكب ؟ فلما سمعا منه ذلك تقدم الوالد فركب الحمار ، لكنه لم يكد يستوى على ظهره حتى رأتهما امرأتان فقالت إحداهما: ياالقساوة هذا الشيخ يركب مطمئناً كالأمير ويترك ابنه يجرى وراءه كعبد حقير .

فأردف ابنه ومضيا كذلك ، إلى أن قابلهما جماعة قافلون من المدينة فصاح أحدهم بأصحابه : انظروا إلى هذين الشخصين الضخمين يركبان حماراً ضعيفاً كأنهما يحاولان موته ، فنزل الأب وبقى الولد وسارا حتى نظرهما رجل مسن فأخذ يقول للولد : أف لك يا قليل الأدب ، أما تخجل أن تركب وتدع أباك الشيخ يدب بعصاه خلفك كأنه خادمك ، فتأثر الولد من قوله ، وترجل عاجلا والتفت إليه وقال : ما ينبغى أن نفعل يا أبى حتى نرضى الناس ونسلم من لومهم ؟ أنحمل الحمار على لوح ، وندخل به المدينة أم ندفنه فى حفرة ونستريح ؟

فقال : يا بنى إنما أردت بذلك عظتك : اعلم أنه لا يمكن إرضاء جميع الناس والتخلص من لومهم بحال من الأحوال ، لاختلاف عقولهم وتضارب آرائهم ، فإنك إن أرضيت زيداً فى أمر ، أسخطت عمراً فيه ، وإذا وافقت هذا خالفت ذلك ، فما على العاقل إلا أن يجهد نفسه فى إتمام واجباته على وجه الكمال ، من غير أن يبالى بقيل وقال ، وإلا فلا يتهيأ له الإقدام على عمل من الأعمال .

تروى هذه النادرة بألفاظ مختلفة والسياق الذى أوردناه من كتاب بحر الأدب .

ومنه أيضاً ذكر أن مولى لقمان دعا أحباءه إلى الغداء عنده وأمر عبده أن يشترى لهم أطيب شيء . فاشترى ألسنة . ولما جلس الضيوف على المائدة كان جميع ما قدم لهم ألسنة فسئمت نفوسهم من الأكل . فقال له مولاه : ألم آمرك أن تشترى أطيب شيء ؟ قال : لا شيء أطيب من اللسان فإنه آلة لتسبيح المعبود وترجمان القلوب ، به ينشر الصلاح وتاتى العلوم وتعمر البلاد وتساس العباد وتضبط الأمور .

ثم قال له مولاه : حيث إنك قد اشتريت أطيب شيء فأتنى غداً بأخبث شيء ، فأتاه بألسنة أيضاً ، فغضب عليه سيده غضباً شديداً ، وقال له : غداً سأبيعك ، ولكن لابد أن تقول لى

الآن لماذا عدت فما اشتريت إلا ألسنة ؟ قال : ألم يعلم سيدى أن اللسان أخبث كل شيء ، فإنه آلة للشتائم والشقاق ، به تخرب المدن ، وتشهر الحروب ، ويحكم على الأبرياء ، فقال : وكيف توفق بين كلامك اليوم وكلامك أمس ؟

قال يا سيدى : لا أطيب من اللسان إذا طاب ، ولا أخبث منه إذا خبث ، والعاقل من طيب لسانه ، فإنه إن فعل كان من أكمل الناس ، فسر به سيده ، وعدل عن بيعه .

وذكر الخطيب الشربينى هذه النادرة على وجه آخر ، وهو أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم أمره بمثل ذلك وأن يخرج أخبث مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا .

وذكر الخطيب أيضاً أنه دخل على داود وهو يصنع الدروع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله ، فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت ، فقال : الصمت حكمة ، وقل فاعله ، فقال له داود : بحق ما سميت حكيماً . وروى هذه النادرة العسكرى فى الأمثال والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس (ض) .

وفى كتاب الأذكياء لابن الجوزى : حدثنا مكحول :

أن لقمان الحكيم كان عبداً نوبيًّا أسود ، وكان قد أعطاه الله تعالى الحكمة ، وكان لرجل من بنى إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالا ونشّ يعنى نصف مثقال ، وكان يعمل له ، وكان مولاه يلعب بالنرد يقامر عليه ، وكان على بابه نهر جار ، فلعب يوماً بالنرد على أن من قمر صاحبه شرب الماء الذى فى النهر كله ، أو افتدى منه ، وإن هو قمر صاحبه فعل به مثل ذلك . قال : فقُمِر سيد لقمان ، فقال له القامر : اشرب ما فى النهر وإلا فافتد منه ، قال : فسلنى الفداء ، قال عينيك أفقؤهما أو جميع ما تملك ؛ قال : أمهلنى يومى هذا ، قال لك ذلك. قال : فأمسى كئيباً حزيناً إذْ جاءه لقمان وقد حمل حزمة على ظهره فسلم على سيده ثم وضع ما معه ورجع إلى سيده .

وكان سيده إذا رآه عبث به ، ويسمع منه الكلمة الحكيمة فيعجب منه ، فلما جلس إليه قال لسيده : مالى أراك كئيباً حزيناً ؟ فأعرض عنه ، فقال له الثانية مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم قال له الثالثة مثل ذلك ، فأعرض عنه ، فقال : أخبرنى فلعل لك عندى فرجاً ، فقص عليه القصة ، فقال له لقمان : لا تغتم فإن لك عندى فرجاً ، قال : وما هو؟ قال : إذا أتاك الرجل فقال لك اشرب ما فى النهر ، فقل له : أشرب ما بين ضفتى النهر أو المد ؟ فإنه يقول لك اشرب ما بين الضفتين ، فإذا قال لك

ذلك ، فقل له احبس عنى المد حتى أشرب ما بين الضفتين ، فإنه لا يستطيع أن يحبس عنك المد ، وتكون قد خرجت مما ضمنت له فعرف له سيده أنه قد صدق ، فطابت نفسه .

فلما أصبح جاءه الرجل فقال له ، فِ لى بشرطى ، قال : نعم ، أشرب ما بين الضفتين أو المدَ ؟ قال : لا بل ما بين الضفتين ، قال : فاحبس عنى المد ، قال كيف أستطيع ، قال : فخَـصَـمَه ، وأعتقه مولاه .

ومن قصص الأنبياء للثعلبي ، أخبرنا أبو عبد الله الحسين الدينورى عن عكرمة قال : كان لقمان أهون مملوك على سيده قال : فبعثه مولاه مع رفقة له إلى بستان له ليأتوه بشىء من ثمره ، فجاءوا وليس معهم شىء ، وقد أكلوا الثمر وأحالوا على لقمان فقال لمولاه : إن ذا الوجهين لا يكون عند الله أميناً فاسقنى وإياهم ماء حميماً ، ثم أرسلنا لنقذفه ، ففعل فجعلوا يتقايئون الفاكهة وجعل لقمان يتقايأ ماء نقيًّا ، فعرف صدقه من كذبهم.

وقيل : قدم لقمان من سفر فلقى غلاماً له فقال : ما فعل أبى ؟ قال مات ، قال : ملكت أمرى ، فما فعلت أمى ؟ قال : ماتت ، قال : ذهب همى ، فما فعلت أختى ؟ قال : ماتت ، قال سترت عورتى . قال : فما فعلت امرأتى ؟ قال : ماتت ، قال : جددت فراشى ، قال : فما فعل أخى ؟ قال :

مات ، قال : آه انقطع ظهرى . أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند عن عبد الله بن دينار وذكره فى قصص الأنبياء من غير سند . وجاء فى الشريشى أن مولاه أراد بيعه فقال يا مولاى : إن لى عليك حقًّا فلا تبعنى إلا لمن أحب ، قال : لك ذلك . فكان الرجل إذا جاء يستامه ، قال : لأى شىء تريدنى ؟ فقال : أحدهم تحفظ على بابى . قال : اشترنى فلما جنه الليل ، أغلق الباب ، وقام يصلى فى الدهليز ، وكان لبنات الرجل أخلاء ، فجاءوا فضربوا الباب ، فقلن يا لقمان افتح الباب ، فقال : بأبى أنتن وأمى ليس لهذا اشترانى أبوكن ، فضربنه ضرباً كدن أن يأتين منه على نفسه ، فلما أصبح لم يُخبر أباهن ، فلما كانت الليلة الثانية ، عاودنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر أباهن . فلما كانت الليلة الثالثة عاودنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر أباهن ، فأقبل بعضهن على بعض فقلن : ما جعل الله هذا العبد الأسود أولى بهذا الخير منا . قال : فنسكن نسكاً لم يكن فى بنى إسرائيل أفضل منهن .

أحكامه

فى كتاب الجمان فى أخبار الزمان ، أن لقمان كانت له زوج جميلة فزنى بها رئيس قبائل بنى كركر ، فرجمها لقمان ، فكانت أول امرأة زانية رجمت .

وفيه أن رجلا شكا إلى لقمان إتيان السارق إلى خيمته وإدخاله يده ، وسرقته منها أشياءه ، فأمره لقمان بقطع يده ، وأنه أول من سن قطع يد السارق .

وفى الدر المنثور أخرج عبد الرزاق عن عمر بن عبد العزيز ، قال لقمان : إذا جاءك الرجل وقد سقطت عيناه فلا تقض له حتى يأتى خصمه ، قال : لعله أن يأتى ، وقد نزع أربع أعين.

حكمه

قيل للقمان : ما أقبح وجهك ! قال : تعيب بهذا على النقش أو على النقاش .

وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني أسود فقلبي أبيض .

وسئل : أى علم أوثق فى نفسك ؟ قال : تركى ما لا يعنيني .

وقال : لا تعلم أهلك وولدك بمالك ، فإنه إن كان قليلا هنت عليهم ، وإن كان كثيراً لم تبلغ رضاهم .

وقال له داود عليه السلام يوماً ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت فى يد غيرى ، فتفكر داود فيه ، فصعق صعقة .

وقيل له : أى الناس شر ؟ قال : الذى لا يبالى أن يراه الناس مسيئاً .

وروى أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال : ألست فلاناً الراعى فبم بلغت ما بلغت ؟ قال : بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني .

ومر بعضهم به والناس حوله فقال : ألست عبد بنى فلان ؟ قال : بلى : قال : ألست ترعى الغنم عند رجل ؟ قال : بلى ،

قال : فبم بلغت هذه المنزلة ؟ قال : بصدق الحديث وطول السكوت إلا من حاجة .

وقال له رجل : ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال : ما ذاك ؟ قال : وطئ الناس بساطك ، ورضوا بقولك ، فقال : يا أخى إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك ، ثم قال : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة مطعمى ، وحفظى فرجى ، وقيامى بعهدى ، ووفائى بوعدى ، وإكرام ضيفى وجارى ، وتركى ما لا يعنينى ، هو الذى صيرنى كما ترى .

وقال : رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، كل امرئ فى بيته أمير ، كل امرئ بشأنه عليم ، آخر الدواء الكى .

وقال : إن الذهب يجرب بالنار وإن المؤمن يجرب بالبلاء .

وقال : إن العالم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار .

وقال : الإخوان ثلاثة : مخالب ومحاسب ومراغب ، فالمخالب الذى ينال منك معروفك ولا يكافئك ، والمحاسب الذى ينيلك بقدر ما يصيب منك ، والمراغب الذى يرغب فى مواصلتك بغير طمع .

وقال : إن المؤمن من إذا أبصر العاقبة أمن الندامة .

وقال : ينبغى للعاقل أن يكون فى أهله كالصبى ، فإذا كان فى القوم وجد رجلا .

ومن كلامه لا تأمنن امرأة على سر ، ولا تطأ جارية تريدها للخدمة ولا تستلفن من مسكين استغنى .

وعن عبد الرزاق عن ابن جريج قال : رآنى عمر وأنا متقنع ، فقال يا أبا خالد ، إن لقمان كان يقول : القناع بالليل ريبة ، وبالنهار مذلة ، فقلت : إن لقمان لم يكن عليه دين .

وقال لقمان : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان ، من إذا رضى لم يخرجه رضاه إلى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له .

وقال : إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار ، وإن العالم الأخرق يطرد الناس عن علمه بالهذر والإكثار .

وعن أبى الحسن العكلى ، عن عبد الله بن بكر بن عبد الله المزنى قال : سمعت أبى يقول : قال لقمان ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع .

وفى قصص الأنبياء ، أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن عجلان قال : قال لقمان الحكيم ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس .

وفى بعض الكتب ، قال لقمان : خدمت أربعة آلاف نبى (؟) واخترت من كلامهم ثمانى كلمات : إن كنت فى الصلاة فاحفظ قلبك ، وإن كنت فى الطعام فاحفظ حلقك ، وإن كنت فى بيت الغير فاحفظ عينيك ، وإن كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، واذكر اثنين وانس اثنين ، أما اللذان تذكرهما فالله والموت ، وأما اللذان تنساهما فإحسانك فى حق الغير ، وإساءة الغير فى حقك . وقال : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه ، زاده الله تعالى بذلك عزاً ، والذل فى طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية ، ذكره فى روح المعانى .

وقال : لا تعاشر الأحمق وإن كان ذا جمال ، وانظر إلى السيف ما أحسن منظره .

وقال : لا تترك النظر فى مساويك كل وقت ، لأن ترك ذلك نقص من محاسنك .

ومن أدبه المروى عنه : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لا بقاء للنعمة إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت .

ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا فى الحرب إذا لاقى الأقران ،

ولا أخوك إلا عند حاجتك إليه ، إن القلب ليحيا بالحكمة كما تحيا الأرض بالمطر ، حيلتان أعيت الحيلة فيهما : إدبار الأمر إذا أدبر وإقباله إذا أقبل ، ما كتمته عن عدوك فلا تظهر عليه صديقك ، الشريف إذا تزهد تواضع ، والوضيع إذا تزهد تكبر ، السؤال نصف العلم ، ومداراة الناس نصف العقل ، جزاء من كذب ألا يصدق ، اجتنب مصاحبة الكذاب ، فإن ألجئت إليه فلا تصدقه ، ولا تعلمه أنك تكذبه فتنتقل عن وده ، إن مثل الصلاة المفروضة كمثل السفينة فى البحر إن سلمت سلم من فيها ، وإن هلكت هلك من فيها ، المراء مفتاح اللجاج ، واللجاج مفتاح الإثم ، حسن النية من العبادات ، وحسن الجلسة من الرياسة ، وحسن الرياسة من العلم ، وسوء الخلق من اللؤم ، وحسن الخلق من الكرم ، ذكره فى كتاب الجواهر والأنوار ، ومعدن الحكم والأسرار .

وقال : لا يتم عقل امرئ حتى يكون فيه عشر خصال : يكون الكبر منه مأموناً ، والرشد فيه مأمولا ، وفضل ما لديه مبذولا ، لا يصيب من الدنيا إلا القوت ، التواضع أحب إليه من الشرف ، والذل أحب إليه من العز ، لا يسأم من طلب المعالى ، ولا يتبرم بطلب الحوائج إليه ، يستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقل كثيره من نفسه ، وأن يرى جميع أهل

الدنيا خيراً منه ، وأنه شر منهم ، وهذه الخصلة تشيد مجده ، وتكبت ضده وتعلى قدره ، وتطيب فى العالمين ذكره .

وقال : من عد نعمه محق كرمه .

وقال : المعروف كنز فانظر من تودعه .

وقال : خذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك تقدمه لآخرتك ، ولا ترفضها كل الرفض فتكون على الناس عيالا ، وعلى أعناق الناس كَلاّ .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبيهقى عن سيار بن الحكم قال : قيل للقمان ما حكمتك ، قال : لا أسأل عما قد كفيت ، ولا أتكلف ما لا يعنينى ، وفى زوائد عبد الله عن عبد الله بن زيد (ض) قال : قال لقمان : ألا إن يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له .

وأخرج أحمد عن هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب فى الحكمة ، يعنى حكمة لقمان ، لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسيطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .

وأخرج عن محمد بن جحادة قال : قال لقمان : يأتى على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم .

وأخرج عن ابن أبى نجيح ، قال : قال لقمان : الصمت

حكمة وقليل فاعله ، فقال طاوس أىْ أبا نجيح ، من قال واتّقى خيراً ممن صمت واتقى الله .

وأخرج ابن المبارك عن ابن أبى مليكة أن لقمان كان يقول : اللهم لا تجعل أصحابى الغافلين ، إذا ذكرتك لم يعينونى ، وإذا نسيتك لم يذكرونى ، وإذا أمرت لم يطيعونى ، وإذا صمت أحزنونى [١] .

---

(١) من مصادر هذا الباب زيادة على ما ذكر فى الصلب تفسير أبى حيان والدر المنثور والخطيب الشربينى ومحاضرات الأبرار لابن عربى والكنز المدفون ليونس المالكى والتسلية والسلوان لكنون ونزهة المجالس للصفورى والوسيط فى الأدب العربى والإحياء للغزالى وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وتذكرة ابن حمدون ومحاورات الأدباء للراغب وبعض المخطوطات .

وصاياه لابنه

(الوصايا الجامعة)

فى عيون الأخبار حدثنى عبد الرحمن بن الحسين عن عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه قال : قال لقمان لابنه :

يا بنى إذا سافرت فلا تنم على دابتك ، فإن كثرة النوم سريع فى دَبَرها ، فإذا نزلت أرضاً مُكْلِئَة فأعطها حظها من الكلأ ، وابدأ بعلفها وسقيها قبل نفسك ، وإذا أردت النزول فلا تنزل على قارعة الطريق ، فإنها مأوى الحيات والسباع ، ولكن عليك من بقاع الأرض بأحسنها لوناً ، وألينها تربة ، وأكثرها كلأ ، فانزلها ، وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس ، وقل رب أنزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين . .

وإذا أردت قضاء حاجة ، فأبعد المذهب فى الأرض ، وعليك بالسترة ، وإذا ارتحلت من منزل فصل ركعتين ، وودع الأرض الذى ارتحلت عنها وسلم عليها وعلى أهلها فإن لكل بقعة من الأرض أهلا من الملائكة ، وإذا مررت ببقعة من الأرض أو واد أو جبل فأكثر من ذكر الله فإن الجبال والبقاع ينادى بعضها بعضاً : هل مر بكن اليوم ذاكر لله ؟ وإن استطعت

ألا تطعم طعاماً حتى تتصدق منه فافعل ، وعليك بذكر الله جل وعز ما دمت راكباً ، وبالتسبيح ما دمت صائماً ، وبالدعاء ما دمت خالياً ، وإياك والسير فى أول الليل ، وعليك بالتعريس والدلجة من نصف الليل إلى آخره ، وإياك ورفع الصوت فى سيرك إلا بذكر الله . .

وسافر بسيفك وقوسك وجميع سلاحك وخُفّك وعمامتك وإبرتك وخيوطك ، وتزود معك الأدوية تنتفع بها وتنفع من صحبك من المرضى والزمْنَى ، وكن لأصحابك موافقاً فى كل شىء يقربك إلى الله ويباعدك من معصيته ، وأكثر التبسم فى وجوههم ، وكن كريماً على زادك بينهم وإذا دعوك فأجبهم ، وإذا استعانوك فأعنهم ، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم واجهد رأيك ، وإذا رأيتهم يمشون فامش معهم أو يعملون فاعمل معهم ، وإن تصدقوا أو أعطوا فأعط واسمع لمن هو أكبر منك ، وإن تحيرتم فى طريق فانزلوا ، وإن شككتم فى القصد فتثبتوا وتآمروا . .

وإن رأيتم خيالا واحداً فلا تسألوه عن طريقكم فإن الشخص الواحد فى الفلاة هو الذى حيركم ، واحذروا الشخصين أيضاً إلا أن تروا ما لا أرى فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وإن العاقل إذا أبصر شيئاً بعينه عرف الحق بقلبه .

وفى قصص الأنبياء وروى المحاربى عن سفيان الثورى قال : قال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عميق ، قد غرق فيها ناس كثير ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله ، وليكن حشوها إيمانك بالله ، وشراعها التوكل على الله ، فلعلك تنجو وما أظنك ناجياً .

يا بنى ، كيف لا يخاف الناس ما يوعدون ، وهم فى كل يوم ينقصون ، يا بنى خذ من الدنيا بلغة ، ولا تدخل فيها دخولا فتضر فيها بآخرتك ، ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس ، وصم صياماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك عن الصلاة ، فإن الصلاة عند الله أعظم من الصوم .

يا بنى ، لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء ، وتمارى به السفهاء ، أو ترائى به فى المجالس ، ولا تترك العلم زهادة فيه ، ورغبة فى الجهالة .

يا بنى ، اختر المجالس على عينيك ، فإن رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس إليهم ، فإنك إن تكن عالماً ينفعك علمك ، ويزيدوك علماً ، وإن تكن جاهلا يعلموك ، ولعل الله أن يطالعهم برحمته ، فتعمك معهم ، وإن رأيت قوماً لا يذكرون الله ، فلا تجلس إليهم ، فإنك إن تكن عالماً لا ينفعهم علمك وإن تكن جاهلا يزيدوك جهلا فلعل الله يطالعهم بالعقوبة فتعمك معهم .

يا بنى ، لا تضع برك إلا عند راعيه ، كما ليس بين الكبش والذئب خلة ، كذلك ليس بين البار والفاجر خلة ، ومن يحب المراء يشتم ، ومن يدخل مداخل السوء يتهم ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

يا بنى ، كن عبداً للأخيار ، ولا تكن خليلا للأشرار .

يا بنى ، كن أميناً تكن غنيًّا ، ولا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر .

يا بنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، ولا تجادلهم فيمنعوك حديثهم ، والطف بهم فى السؤال إذا تركوك ، ولا تعجزهم فيملوك .

يا بنى ، إن تأدبت صغيراً انتفعت كبيراً .

يا بنى إذا سافرت فلا تأمن [1] على دابتك ، فإن ذلك سريع فى إدبارها ، وليس ذلك من فعل الحكماء ، إلا أن تكون فى محل يمكنك فيه التمدد ، وإذا قربت من المنازل فانزل عن دابتك وسر ، ثم ابدأ بعلفها قبل نفسك ، وإياك والسفر فى أول الليل ، وعليك بالتعريس والإدلاج من نصف الليل إلى آخره ، وسافر بسيفك وخفّك وعمامتك وكسائك وسقائك

(١) كذا بالأصل ولعل صوابها تنم كما هى فى الوصية المتقدمة .

وإبرتك وخيوطك ومِخْرزك وتزود من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً موافياً إلاَّ فى معصية الله .

يا بنى ، إياك والتقنع فإنه بالنهار شهرة وبالليل ريبة .

يا بنى ، لا تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك فيكون مثلك مثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه .

يا بنى ، لا تحقرن من الأمور صغارها ، إن الصغار غداً تصير كباراً .

يا بنى ، إياك والكذب فإنه يفسد دينك ، وينقص عند الناس مروءتك ، فعند ذلك يذهب عند الناس حياؤك وبهاؤك وجاهك وتهان ، ولا يسمع منك إذا حدثت ، ولا تصدق إذا قلت ، ولا خير فى العيش إذا كان هكذا .

يا بنى إياك وسوء الخلق والضجر ، وقلة الصبر ، فلا يستقيم لك على هذه الخصال صاحب ، ولا يزال لك من الناس عليها مجانب ، والزم نفسك التودد فى أمورك ، والصبر على مرارات الأحوال وحسّن مع جميع الناس خلقك ، فإن من حسن خلقه وأظهر بشره وبسطه ، حظى عند الأبرار ، وأحبه الأخيار ، وجانب الفجار .

يا بنى ، لا تعلق نفسك بالهموم ، ولاتشغل قلبك بالأحزان ، وإياك والطمع ، وارض بالقضاء ، وارض بما قسم الله لك يصفُ

عيشك ، وتسر نفسك ، وتستلذ حياتك ، وإن أردت أن يجمع لك غنى الدنيا فاقطع طمعك مما فى أيدى الناس ، فإنه ما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم مما فى أيدى الناس .

يا بنى ، إن الدنيا قليل ، وعمرك فيها قليل من قليل ، وقد بقى قليل من قليل ، مقتاً لقليل .

يا بنى ، اجعل معروفك فى أهله ، ولا تضعه فى غير أهله فتخسره فى الدنيا ، وتحرم ثوابه فى الآخرة ، وكن مقتصداً ، ولا تكن مبذراً ، ولا تمسك المال تقتيراً ، ولا تعطه تبذيراً .

يا بنى ، الزم الحكمة تكرم بها ، وأعزها تعز بها ، وسيد أخلاق الحكمة دين الله عز وجل .

يا بنى ، للحساد ثلاث علامات . يغتاب صاحبه إن غاب ، ويتملق إذا شهد ، ويشمت فيه بالمصيبة .

وفى حاشية الصاوى على الجلالين ، قال لقمان لابنه :

يا بنى ، اتخذ تقوى الله تجارة يأتيك الربح من غير بضاعة ،

يا بنى ، احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة ، والعرس يشهيك الدنيا .

يا بنى ، لا تكن أعجز من هذا الديك الذى يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك .

يا بني ، لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة .

يا بني ، لا ترغب فى ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله .

يا بني ، اتق الله ، ولا تر الناس أنك تخشاه ليكرموك بذلك وقلبك فاجر .

يا بنى ، ما ندمت على الصمت قط ، فإن الكلام إذا كان من فضة ، كان السكوت من ذهب .

يا بنى ، اعتزل الشر يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق .

يا بنى ، عليك بمجالس العلماء ، واستمع كلام الحكماء ، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل المطر ، وإياك والكذب وسوء الخلق ، فإن من كذب ذهب ماء وجهه ، ومن ساء خلقه كثر غمه ، ونقل الصخور من موضعها أيسر من إفهام من لا يفهم .

يا بنى ، لا ترسل رسولا جاهلا ، فإن لم تجد حكيما فكن رسول نفسك .

يابنى ، لا تنكح أمة غيرك ، فتورث بنيك حزناً طويلا .

يا بنى ، يأتى على الناس زمان لا تقر فيه عين حليم .

يا بنى ، اختر المجالس على عينك فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم ، فإنك إن تكن عالماً يزدد علمك ، وإن تكن غبيًّا يعلموك ، وإن يطلع الله عز وجل

عليهم برحمة تصبك معهم .

يا بنى ، لا تجلس فى المجلس الذى لا يذكر فيه الله عز وجل ، فإنك إن تكن عالماً لا ينفعك علمك ، وإن تكن غبيًّا يزيدوك غباء ، وإن يطلع الله عليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم .

يا بنى ، لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور فى أمرك العلماء .

يا بنى ، إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها أناس كثير ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله ، وحشوها الإيمان به ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك أن تنجو .

يا بنى ، إنى حملت الجندل والحديد ، فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء ، وذقت المرارة كلها فلم أذق أشد من الفقر .

يا بنى ، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

يا بنى ، لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم .

يا بنى ، إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه ، وإلا فاحذره .

يا بنى ، إنك منذ نزلت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت

الآخرة ، فدار أنت إليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترتحل .

يا بنى ، إياك والدين ، فإنه ذل النهار وهم الليل .

يا بنى ، ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته ، وخف الله خوفاً لا يوئسك من رحمته .

وفى روح المعانى ، قال لقمان لابنه :

يا بنى ، لا تأكل شبعاً على شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله .

يا بنى ، لا تكن حلواً فتبلع ، ولا مرًّا فتلفظ .

يا بنى ، لا خير لك فى أن تتعلم ما لم تعلم . إذا لم تعمل بما قد علمت ، فإن مثل ذلك ، مثل رجل احتطب حطباً فحمل حزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى .

يا بنى ، لتكن كلمتك طيبة ، ووجهك بسطاً ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .

يا بنى ، أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ، ولا بد لك منه .

يا بنى ، كن كمن لا يبتغى محمدة الناس ، ولا يكسب ذمهم ، فنفسه منه فى عناء ؛ والناس منه فى راحة .

يا بنى ، امتنع بما يخرج من فيك ، فإنك ما سكت سالم ،

وإنما ينبغى لك من القول ما ينفعك .

وفى عين الأدب والسياسة قال لقمان لابنه :

يا بنى لا تركن إلى الدنيا ، ولا تشغل قلبك بحبها ، فإنك لم تخلق لها ، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها ، لأنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ، ولا بلاءها عقوبة للعاصين .

يا بنى ، إن الدنيا بحر عريض قد هلك فيه بشر كثير ؛ فإن استطعت أن تجعل سفينتك الإيمان بالله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك التقوى ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

يا بنى ، لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش فى غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك .

يا بنى ، لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت .

يا بنى ، إن من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الشر يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

وفى ثمار القلوب للثعالبى من وصاياه لابنه قوله :

يا بنى ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، يا بنى ، إياك وصاحب السوء ، فإنه كالسيف يحسن منظره ، ويقبح أثره .

يا بنى ، لا تكن النملة أكيس منك تجمع فى صيفها لشتائها .

يا بنى ، لا يكن الديك أكيس منك ينادى بالأسحار وأنت نائم .

يا بنى ، إياك والكذب ، فإنه أشهى من لحم العصفور .

يا بنى ، إن الله تعالى يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض بالمطر .

يا بنى ، لا تقرب السلطان إذا غضب ، والنهر إذا مد .

يا بنى ، اتخذ تقوى الله بضاعة تأتك الأرباح . من غير تجارة .

يا بنى ،شاور من جرب الأمور ، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء ، وأنت تأخذه بالمجان .

يا بنى ، كذب من قال : إن الشر يطفأ بالشر ، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفأ إحداهما بالأخرى ، وإنما يطفىء الخير الشر ، كما يطفىء الماء النار .

الوصايا المتفرقة

قال لقمان لابنه : يا بنى ، حملت الصخر والحديد فلم أحمل أثقل من الدين ، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أصب ألذ من العافية ، وذقت المرارات فلم أذق أمر من الحاجة إلى الناس .

يا بنى ، لا ينبغى للعاقل أن يخلى نفسه من أربعة أوقات : فوقت منها يناجى ربه ، ووقت يحاسب فيه نفسه ، ووقت يكسب فيه معاشه ، ووقت يخلى فيه بين نفسه وبين لذتها يستعين بذلك على سائر الأوقات .

يا بنى ، نافس فى طلب العلم فإنه ميراث غير مطلوب وقرين غير مغلوب .

يا بنى ، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

يا بنى ، إن افتقرت يوماً فاجعل فقرك فيما بينك وبين الله ، ولا تحدث الناس بفقرك فتهون عليهم ، وإنما فى ذلك أن يحزن صديقك ، ويفرح عدوك .

يا بنى ، إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون ، وهم إلى

الآخرة سراعاً يذهبون ، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت ، واستقبلت الآخرة ، وإن داراً تسير إليها ، أقرب إليك من دار تخرج عنها .

يا بنى ، لا تجالس الفجار ، ولا تماشهم ، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم .

يا بنى ، جالس العلماء وماشهم ، عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم .

يا بنى ، من أرضى والديه فقد أرضى الرحمن ، ومن أسخطهما فقد أسخط الرحمن .

يا بنى ، إنما الوالدان باب من أبواب الجنة ، فإن رضيا مضيت إلى الجنان ، وإن سخطا حجبت عنها .

يا بنى ، لا تمارين حكيما ، ولاتجادلن لجوجاً ، ولاتعاشرن ظلوماً ولا تصاحبن متهماً .

يابنى ، من قصر فى الخصومة خصم ، ومن بالغ فيها أثم ، فقل الحق ولو على نفسك فلا تبال من غضب .

يا بنى ، كن على حذر من الكريم إذا أهنته . ومن الأحمق إذا مازحته ، ومن الجاهل إذا صاحبته ، ومن العاجز إذا خاصمته ، وتمام المعروف تعجيله .

يا بنى ، أمر لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك .

يا بنى ، إياك والكسل والضجر ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق .

يا بنى ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً .

يا بنى ، عليك بذوى التجارب لأن من جرب قد دخل فى المخاضة وعرفها ، وعرف موضع السلامة فيها ، وموضع العطب ، فعلم ما يتجنب منها وما يحذر وما ينبغى أن يفعل وما يستعان به .

يا بنى ، إن من الكلام ما هو أشد من الحجر ، وأنفذ من الإبر ، وأمر من الصبر ، وأحر من الجمر ، وإن من القلوب مزارع ، فازرع فيها الكلمة الطيبة ، فإن لم تنبت كلها نبت بعضها .

يا بنى ، لا تخلق وجهك بطلب الحوائج إلى من هو دونك فإنه إن ردك ساق إليك محنة ، وإن قضى حاجتك اتخذها عليك منة ، واسأل الله ، فإن الله يحب من يسأله ، ويبغض من لا يسأله .

يا بنى ، لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك ،

ولا تجالس السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك ، ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك فى العلم ، ولمن هو دونك ، فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم فى رفق .

يا بنى ، لا تطلب الحكمة فى بطون الأوراق ولا تسمعها من الألسنة ، ولكن انظر الصنعة واذكر الصانع يرشدك لكل شىء .

يا بنى ، اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبًّا ، ولا تكن الخامس فتهلك(١) .

يا بنى ، كل أطيب الطعام ، ونم على أوطأ الفراش . يقول : أكثر الصيام وأطل بالليل القيام .

يا بنى ، إذا سألك الناس فقل لهم لا أدرى فإنك إذا قلت لهم لا أدرى لا يسألونك حتى تدرى وإن قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى .

يا بنى ، استعن بالكسب الحلال على الفقر ، فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته ثلاث خلال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به .

يا بنى ، إذا قعدت إلى ذى سلطان فليكن بينك وبينه مقعد رجل ، فلعله أن يأتيه من هو آثر عنده منك ، فيريد أن

---

(١) روى هذا الكلام أيضاً حديثاً .

تنحى له عن مجلسك ، فيكون ذلك نقصاً عليك وشيناً .

يا بنى ، إياك وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول ، يعجب منظره ويقبح أثره . ولا يهونن عليك من قبح منظره ، ورث لباسه ، فإن الله تعالى إنما ينظر إلى القلوب ، ويجازى بالأعمال .

يا بنى ، خذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلاًّ ، وصم يوماً يكسر شهوتك ولا تصم يوماً يضر بصلواتك فإن الصلاة أفضل من الصوم ، وكن كالأب لليتيم ، وكالزوج للأرملة ، ولا تحارب الغريب ، ولا تجالس السفيه ، ولا تخالط ذا الوجهين البتة .

يا بنى ، إن العمل لا يستطاع إلا باليقين ، ومن يضعف يقينه ، يضعف عمله .

يا بنى ، إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريبة فاغلبه باليقين والنصيحة ، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة فاغلبه بذكر القبر والقيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة فأخبره أن الدنيا مفارقة متروكة .

يا بنى ، لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته ، إلا جعلت فى الضمير منك أن ذلك خير لك .

يا بنى ، إذا انتهيت إلى نادى قوم، فارمهم بسهم الإسلام ، ثم اجلس فى ناحيتهم ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فاجلس معهم وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم .

يا بنى ، اذكر اثنتين ، واحفظ اثنتين ، وانس اثنتين : اذكر الله والموت ، واحفظ عينك فى بيوت الناس ، وقلبك فى الصلاة ، وانس إحسانك إلى غيرك وإساءة غيرك إليك .

يا بنى ، شيئان إذا أنت حفظتهما لا تبالى ما صنعت بعدهما : ذنبك لمعادك ، ودرهمك لمعاشك .

يا بنى ، ارج الله رجاء لا تأمن فيه مكره ، وخف الله مخافة لا تيأس بها من رحمته ، قال : يا أبت وكيف أستطيع ذلك ، وإنما لى قلب واحد ، قال : المؤمن له قلبان قلب يرجو به ، وقلب يخاف به .

يا بنى ، احذر واحدة هى أهل للحذر : إياك أن ترى الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر .

يا بنى عود لسانك أن يقول اللهم اغفر لى فإن لله ساعة لا يرد فيها الدعاء[1] .

---

(١) من مصادر هذا الباب زيادة على ما سبق ذكره الكامل للمبرد وغرر الخصائص للوطواط ولباب الآداب لابن منقذ والبيان والتبيين للجاحظ وأحكام القرآن لابن العربى وأدب الدنيا والدين للماوردى وشرح الشفالا بن سلطان والمستطرف للأبشيهى وجامع بيان العلم لابن عبد البر ، وسوى ذلك من كتب التفسير والحديث والأدب والأخلاق هذا وقد يكون للحكمة الواحدة مصادر متعددة وترد فى كل مصدر بألفاظ مختلفة وبزيادة أو نقصان فتختار المهم من ذلك والحمد لله أولا وآخراً .

فهرست

الصفحة

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

لقمان الحكيم

يحدثنا هذا الكتاب الطريف عن « الحكيم » الذى ارتضى الله قوله ، وقصَّه علينا فى القرآن لنتمسك به ، ونأخذ منه بعزم الأمور .

كما يعرفنا باسمه ، وجنسيته ، ونسبه ، وعصره ، وبلده ، وصفاته ، وأخلاقه ، وحرفته .

أما الفصول الأخرى من الكتاب فتحدثنا فى أمانة وطلاوة عن لقمان فى القرآن . . . ، وفى الحديث . . . ، وفى الشعر . . . ، وفى أمثلة العرب . . . ، وعن حكمه ، وأحكامه ، ونوادره ، ووصاياه لابنه . . .

ص ١٥